التماسك النصي
عند حازم القرطاجني

الأستاذة رشيدة كلاع
جامعة منتوري – قسنطينة/الجزائر

شكل النص الشعري القديم مناط اهتمام العديد من الدراسات الحديثة، التي لمست فيه نقاطا مضيئة تحتاج إلى إعادة النظر للكشف عن سر القوة والتميز فيه ، مستفيدة من الآليات التي تتيحها مناهج البحث الحديثة لذا فقد" اتجهت نهضتنا الثقافية الحديثة إلى إحياء التراث ، واتخاذ ما ظل منه صالحا للبقاء منطلقا نحو التطور والتجديد العصري...فرأوا فيه مناهج مختلفة ، وقضايا كلية مشابه تصل بينه وبين ألوان و مذاهب من النقد الغربي المعاصر " [1] هذا التوجه نحو النص القديم هو محاولة لتفعيل العلاقة بينه وبين النظرية النقدية الحديثة ، سعيا لاستجلاء نقاط التلاقي بينهما ، وأيضا لفهم النص القديم من خلال قراءته في منظور الدراسات الحديثة ، وفق ما توفره هذه المناهج من آليات تقود إلى طرح جديد، وقراءة مختلفة لهذا التراث .

نسعى من خلال هذه الوقفة إلى دراسة بنية النص الشعري عند حازم القرطاجني ، هذه الهامة النقدية التي كانت لها بصماتها الواضحة في الدرس النقدي القديم ، بفضل نهلها من معين الدراسات النقدية السابقة، إضافة إلى تأثرها بالموروث الفلسفي وكتاب الشعر لأرسطو بشكل خاص. حيث حاول النهوض بالعملية الإبداعية ، والارتقاء بها إلى سابق عهدها. تأتي قراءتنا لهذه الآراء في منظور نظرية النص الحديثة ، بحثا منا عن نقاط التلاقي بينه وبين ما تدعو إليه هذه النظرية ، فيما يتعلق بكيفية بناء النص هذا " من منطلق التفاعل بينه و بين الحداثة قصد فهمه في ذاته و استجلاء أبعاد النظرية الأدبية التي يتضمنها ، ثم لمحاصرة مظاهر المعاصرة فيه ، التي يمكن استحضارها اليوم للمساهمة بها في تغذية النقاش القائم حولنا في هذه القضايا "[2] فالغاية إذن هي قراءة جديدة لهذا التراث من خلال توظيف وسائل جديدة أتاحها هذا التطور في الدارسة، وبخاصة ما يتعلق بالوحدة الدلالية التي يعد توفرها في العمل سببا في وصفه بالنصية _ بغض النظر عن نوعه وحجمه - وهو ما

---

[1] عبد القادر القط . النقد الأدبي القديم و المنهجية . مجلة فصول العدد 3 ، المجلد الاول . مصر ، افريل 1981 ، ص 13 .

[2] صلاح فضل . في النقد الادبي ، د ط ، منشورات اتحاد المكتاب العرب ، دمشق سوريا ، 2007 ، ص 6 .

يقتضي بالضرورة تماسك أجزائه ، وهو ما ينعكس إيجابا على عملية التواصل الشعري ويضمن تفاعل المتلقي مع النص المنجز .

يركز حازم في حديثه عن بناء القصيدة وتقسيمها إلى فصول على الجانب النفسي للعمل الإبداعي ، أي على الأثر الذي يتركه النص في المتلقي قائلا :" إن الحذاق من الشعراء - المهتدين بطباعهم المسددة إلى ضروب الهيئات التي يحسن بها موقع الكلام من النفس ، من جهة لفظ أو معنى أو نظم أو أسلوب – لما وجدوا النفوس تسأم التمادي على حال واحدة ، وتؤثر الانتقال من حال إلى حال ووجودوها تستريح إلى استئناف الأمر بعد الأمر ، واستجداد الشيء بعد الشيء ووجودها تنفر من الشيء الذي لم يتبناه في الكثرة إذا أخذ مأخذا واحدا ساذجا ، ولم يتحيّل في ما يستجد نشاط النفس لقبوله بتنويعه والافتتان في أنحاء الاعتماد به ، وتسكن إلى الشيء وإن كان متناهيا في الكثرة إذا أُخذ من شتى مآخذه التي من شأنها أن يخرج الكلام بها في معارض مختلفة واحتيل في ما يستجد نشاط النفس لقبوله من تنويعه و الافتتان في أنحاء الاعتماد به ، اعتمدوا في القصائد أن يقسموا الكلام فيها إلى فصول يُنحى بكل فصل منها منحى من المقاصد ." [1] .

بدا جليا اهتمام حازم بالجانب النفسي وتأثيره ، سواء على الناص (الشاعر) من خلال البحث عن أحسن الطرق في النظم ، والتي تسهم في إنجاح عملية الاتصال ، و التأثير في المتلقي ودفعه للتفاعل مع مضامين النص ، أو على المتلقي الذي يعتبره حازم شريكا فاعلا وفعالا في عملية إبداع النص بحضوره الطاغي عبر مختلف مراحله ، كيف لا وحازم يسعى بمختلف الطرق لضمان تفاعله، من خلال بسطه للطرق التي تمكّن النص من بلوغ غايته التأثيرية، وذلك بتنبيه الشاعر إليها لأن في مراعاتها نجاح للشاعر والنص معا في بلوغ الغاية .

الحديث عن نظم النص في منهاج البلغاء يتمحور حول البيت وكيفية صياغته بشكل أمثل شاملا البنية الأفقية، و أيضا النّص كبنية كبرى متماسكة ومنسجمة، هذه الأخيرة التي يقف من خلالها حازم عند بناء المطالع والمقاطع، وبناء الفصول وتناسقها سعيا منه إلى إنتاج نص يشكل بناءه نسيجا واحدا متراص الأطراف .

---

[1] أبوالحسن حازم القرطاجني . منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق الحبيب بن الخوجة ، ط . 3 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ، 1986 ، ص 295 ، 296 .

إن النص خاصية بنائية لها تأثيرها وانعكاسها على عملية الاتصال أولا ، ثم على القارئ ثانيا كما أنّه انعكاس لمقدرة الناص على التحكم في آلياته الإبداعية هذا ما " يقتضي للجمل والمنطوقات بأنها محبوكة إذا اتصلت بعض المعلومات فيها ببعض في إطار نصي أو موقف اتصالي اتصالا لا يشعر معه المستمعون أو القراء بثغرات أو انقطاعات في المعلومات ." [1] إنّ حبك النص وتماسكه خاصية تشمل النص وترتبط بالمتلقي من حيث استدعائها لذلك الرصيد المعرفي والبنائي عنده .

الاهتمام بحبك النص واتصال أجزائه وترابطها غاية سعى إلى تحقيقها نقادنا القدماء من خلال حرصهم على اتساق وانسجام وتماسك أجزاء النص ، بغية جعله أكثر قدرة على التأثير في المتلقي لضمان استجابته لما يتضمنه من دلالات ، وهو ما سنحاول كشفه عند حازم القرطاجني .

1- اتساق النص :

- بنية المطالع والمقاطع :

ورد حديث حازم عن المبادئ في موضعين منفصلين من منهاجه ، حيث خصص الاستهلال لمطلع القصيدة في حين جعل المطالع شاملة لعدة عناصر كالبيت مثلا إذ يتجاذب كلامه عن المطلع جانبان " جانب يتعلق بأجزائه وما يجب فيها ويستحسن وأقصد بالأجزاء جملة المصراع الأول ومقطعه ومفتتحه وجملة المصراع الثاني ومقطعه ، وجانب يتعلق بتحسين هيأته والإبداع فيه ويدرك الجانب الأول بمعرفة ما يتعلق بالاستهلال من حيث هو كيفية من كيفيات مبادئ الكلام بينما يدرك الجانب الثاني بمعرفة ما يتعلق به من حيث أنه لا يستشرف إلا بعلم طرق إحكام مباني القصائد وتحسين هيأتها ." [2] .

المقصود بهذا الكلام أن تجويد المطلع كامن في الأجزاء المكونة لصدر البيت بدايته ونهايته وكذا بداية العجز ونهايته ، سواء من حيث ملاءمة هذا المطلع لسياق الكلام ودلالته عليه أو أيضا من ناحية البناء بالعناية بأجزائه المكونة (اللفظ ، المعنى ...) هذا يتضح من خلاله ما نصه " فأما ما يجب في المطالع على رأي من يجعلها استهلالات

---

[1] BERNARD SOWINSKI . tesethinguistik .verlag w . kohlammer stutigant .berlin . koeln . mainz (1983) . p 83

[2] محمد الحافظ الروسي ، ظاهرة الشعر عند حازم القرطاجني ، ط 1، دار الأمان للطباعة والنشر ، الرباط ، 2008 ، ج 2 ، ص 768 .

القصائد فمن ذلك ما يرجع إلى جملة المصراع ،وهو أن تكون العبارة فيه حسنة جزلة وأن يكون المعنى شريفا تاما ، وأن تكون الدلالة على المعنى واضحة وأن تكون الألفاظ الواقعة فيه لاسيما الأولى والواقعة في مقطع المصراع مستحسنة غيركريهة من جهة مسموعها و مفهومها ، فإنّ النفس تكون متطلعة لما يستفتح لها
الكلام به فهي تنبسط لاستقبالها الحسن أولا ، وتنقبض لاستقبالها القبيح أولا أيضا." [1] فإذا كان حازم يتحدث عن المطلع باعتباره الباب الذي يلج منه المتلقي إلى فضاء القصيدة (مستهلها) فإنه يؤكد ضرورة جودة هذا البيت (المطلع) في ذاته أي في طريقة بناءه وتأليفه وأيضا بالنسبة إلى البناء الداخلي للنص الشعري هذا عناية منه بالمتلقي وتأكيد على أثر النص فيه .

لعل من الأمور الأساسية التي دعى حازم إلى وجوب توفرها في المبادىء هي ملاءمته لسياق الكلام الذي يرد فيه ، فلا يتعارض بأي شكل من الأشكال مع ما سيرد بعده في النص " وملاك الأمرفي جميع ذلك أن يكون المفتتح مناسبا لمقصد المتكلم من جميع جهاته ، فإذا كان مقصده الفخر كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ والنظم والمعاني والأسلوب ما يكون فيه بهاء وتفخيم وإذا كان المقصد النسيب كان الوجه أن يعتمد منها ما يكون فيه رقة عذوبة من جميع ذلك ، وكذلك سائر المقاصد فإن طريقة البلاغة فيها أن تفتتح بما يناسبها ويشبهها من القول من حيث الذكر ." [2]

إن هذه الدعوة التي أطلقها حازم والمتمثلة في ضرورة تناسب بنية المطلع وملاءمة هذا الأخير لمقصد الكلام وسياقه أمر يشاركه فيه مواطنه ابن رشيق الذي يرى أن " أول ما يحتاج إليه الشاعر ... حسن التأني والسياسة ، وعلم مقاصد القول ؛ فإن نسب ذلّ وخضع ، وإن مدح أطرى وأسمع ، وإن هجا أخل وأوجع ، وإن فخر خبّ ووضع ، وإن عاتب خفض ورفع ، وإن استعطف حنّ ورجّع ولكنّ غايته معرفة أغراض المخاطب كائنا من كان ؛ ليدخل إليه من بابه ويدخله في ثيابه، فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس به تفاضلوا."[3]

---

[1] حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء ، ص 282 .

[2] نفسه ، ص 310 .

[3] أبو الحسن بن رشيق القيرواني . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، د ط ، منشورات دار ومكتبة الهلال بيروت لبنان ، 2002 ،ج 1،330 .

فإذا كانت المناسبة بين مبدأ الكلام ومقصده ضرورة ملحة يؤكد عليها حازم ، فإن بناء المطلع عنده يشمل مطلع المصراع الأول وكذا مقطعه فمن الأمور الواجب مراعاتها " ما يرجع إلى الكلمة الواقعة في مقطع المصراع ويجب أن تكون مختارة متمكنة حسنة الدلالة على المعنى تابعة له ويحسن أن يكون مقطعها مماثلا لمقطع الكلمة التي في القافية ، وأن يكون ما بين أقرب ساكن منها إلى المقطع من الحركات عدد ما بين أقرب ساكن من كلمة القافية وبين نهايتها من الحركات أيضا وأن يكون ملتزما فيها من حركة المجرى أو التقيد أو التأسيس والردف والوصل بالضمائر وسائر قوافي القصيدة التي ذلك المصراع أوّلها ليكون البيت بوجدان الشروط التي ذكر مصرعا . " [4]

تتجلى بنية المطلع في انتقاء اللفظة الواقعة عروضا للبيت بحيث تكون ملائمة لتلك الواقعة في ضربه فتكون دلالة إضافية ، إلى جانب حرصه على جعلها تتلاءم مع تلك الواقعة قافية من حيث الحروف أو الحركات مع خلوّها من العيوب التي قد تلحق القافية ، مما ينتج عنه التصريع الذي هو أساس المطلع في النص الشعري

هذا التشاكل في بناء مقطع المصراع الأول (العروض) مع تلك الواقعة قافية في المصراع الثاني (الضرب) يجعل هذا المبدأ مناسبا من حيث البناء اللغوي وكذا الموسيقى ، مما يجعله أقدر على لفت انتباه السامع للقافية قبل ورودها والتأثير فيه من خلال هذا التماثل بين العروض والضرب " لهذا فإن التصريح في المطلع لابد منه ، ولابد من أن يصرف الشاعر جهدا كبيرا في تجويده لا ليكون المصرع الثاني مناسبا للأول ولكن ليكون المصرعات أيضا مناسبين للمقطع الذي هو آخر القصيدة زيادة على مناسبته أو ملاءمته لما اندرج من كلام في حشو القصيدة – الذي يمتد بين المقطع والمقطع –فكأن حازما أدرك

---

[4] حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء ، ص 282 ، 283 .

ببديهته صلة مابين خاتمة النص والتدرج الداخلي للمعاني فلا يجوز – في رأيه – أن تأتي هذه الخاتمة بانطباع لم يتولد عن مجمل الانطباعات الخاصة بفحوى القصيدة . " [1] .

يدعو حازم أيضا إلى الابتكار في مطلع المطلع بجعله جديدا بعيدا عن اجترار تلك المعاني التي لجودتها أصبحت منسوبة إلى أصحابها مسجلة بأسمائهم ، فالتميّز في اختيار المطلع وبناءه يعطي النص دفعا قويا على جذب المتلقي وتحقيق تفاعله مع مضمون النص من خلال قوله : " فأما ما يرجع إلى مفتتح المصراع فأن يكون دالا على غرض القصيدة وأن يكون مع ذلك عذب المسموع ولايكون ذلك مما تردد على ألسنة الشعراء في المطالع حتى أخلق وذهبت طلاوته كلفظة خليلي أو مما اختص به شاعر ولم يتعرض أحد لأخذه منه ، كقول امرء القيس (قفانبك) " [2] .

لأنّ انتقاء الصيغة الأسلوبية الجديدة المبتكرة والمؤثرة ، والتي تداعب أوتار النفس وتناجيها هوما يجعلها أقرب إلى المتلقي وأقدر على مفاجأته ولفت انتباهه خاصة مع ملاءمتها للمقصدية الشعرية ولغرض القول.

تعتبر هذه دعوة إلى تجويد مطلع صدر البيت من حيث البناء والتركيب وحسن الإعراب عن الدلالة " فأما صدر المصراع الثاني فلا يشترط فيه كثير مما يشترط فيما جاء في صدر المصراع الأول وإنما حكم صدر المصراع الثاني حكم الألفاظ الواقعة حشوا ." [1] ، هذا الإصرار على جودة المصراع ومن وراءه مطلع القصيدة دليل على الاهتمام بدور البنية النصية في التأثير في المتلقي أولا ثم صلته بما يليه من فصول ثانيا كي يجعل من هذا النص نسيجا واحدا يطبعه الانسجام والاتساق وهو ما يؤكده حديث حازم عن المقاطع حين يقول : " فأما ما يجب في المقاطع على ذلك الاعتبار وهي أواخر القصائد فأن يُتحرى أن

---

[1] ابراهيم خليل .الأسلوبية ونظرية النص ، ط 1 ، المؤسسة العربية و النشر ، بيروت لبنان ، 1997 ، ص 56، 57 .

[2] حازم القرطاجني ، المنهاج ، ص 284 .

[1] نفسه ، ص 284 ، 285 .

يكون ما وقع فيها من كلام كأحسن ما اندرج في حشو القصيدة ، وأن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفر للنفس عما قصدت إمالتها إليه ،أو مميل إلى ما قصدت تنفرها عنه ، وكذلك يتحفظ في أول البيت الواقع مقطعا للقصيدة من كل ما يكره ولو ظاهره وما توهمه دلالة العبارة أوّلا وإن رفعت الايهام آخرا ودلت على معنى حسن ... وإنما وجب الاعتناء بهذا الموضع لأنه منقطع الكلام وخاتمته فالإساءة فيه معفية على كثير من تأثير الإحسان المتقدم عليه في النفس ." [2] الأمر المستحسن في المقاطع هو جعلها متمخضة عما قبلها وتطورا لمعطيات النص ومقاطعه وفصوله ، فينتقى فيها الأفضل من الألفاظ والعبارات ، ويختم بجميل الدلالات ، ليكون المقطع توكيدا لهذا الحسن وترسيخا له فيشعر المتلقي / القارىء وهو يطالع النص وينظر إلى معماره بالمتعة الجمالية لما ورد في أجزاء ه .

إنّ هذا الإسهاب في الحديث عن المطالع و المقاطع ما يحسن فيها وما يكره ، نلمس فيه عناية أقل بالمقاطع مقارنة بالمطالع التي فصل الحديث عن شروطها ووجوب العناية بها وهذا " يدل على أن حازما لم يكن ينظر إلى (المطلع والمقطع) باعتباره مفهوما متعلقا ببناء القصيدة فقط ولكنه كان ينظر إليه باعتباره مفهوما صالحا للنظر في بناء البيت نفسه ، فتجاوز بذلك البحث في مطلع القصيدة ومقطعها إلى البحث فيما يسميه : مطلع المطلع ، ومقطع المطلع ، ومطلع المقطع ومقطع المقطع ."[3]

هذا هو المذهب المختار وفق وجهة نظر حازم النقدية وإن كان يرى أن بعض الشعراء لا يظهرون هذه العناية ولا يذهبون هذا المذهب ، معتدين بقدرتهم على إنتاج أفضل الأشعار دون مراعاة هذه الأمور المذكورة .

التخلص :

التخلص هوة انتقال عبر الأجزاء المكونة للنص ، ومن غرض إلى آخر عن طريق التدرج . فهو سمة بنائية غايتها اتساق النص من خلال الربط بين بناه الصغرى .

يرتبط التخلص بالقصائد المركبة ، وهو ما أشار إليه حازم بقوله : " واعلم أنّ الإنعطاف بالكلام من جهة إلى أخرى أو غرض إلى آخر لا

---

[2] نفسه ، ص 285 .

[3] محمد الحافظ الروسي ، ظاهرة الشعر عند حازم القرطاجني ، ج 1 . ص 770 .

يخلوا من أن يكون مقصودا أولا ، فيذكر الغرض الأول لأن يستدرج منه إلى الثاني ، وتجعل مآخذ الكلام في الغرض الأول صالحة مهيأة لأن يقع بعدها الغرض الثاني موقعا لطيفا ، وينتقل من أحدهما إلى الآخر انتقالا متطرفا ، أو لا يكون قُصد أولا في غرض الكلام الأول أن يجعل ذكره سببا لذكر الغرض الثاني ولا توطئة للصيرورة إليه والاستدراج إلى ذكره بل لاينوي الغرض الثاني في أوّل الكلام ، وإنما يسنح للخاطر سنوحا بديهيا ويلاحظه الفكر المتصرف بالتفاتته إلى كل جهة ومنحى من أنحاء الكلام . " [1]فالتخلص وسيلة لربط أجزاءه النص واتساقه ، وهو أمر قد يقصده الشاعرفيأتي بالتدرج ، بحيث فيفضي الأوّل إلى الثاني بنقلة رتب لها ، أو عن غير قصد وعن بديهة يتحقق هذا الانتقال والربط ، وهو ما يجعل التخلص صورة اتساقية من الدرجة الأولى تسهم في حبك النص و تماسكه .

أما الطريقة الثانية في الانتقال هي ما أطلق عليها حازم اسم الالتفات وهي : " أن يجمع بين حاشيتي كلامين متباعدي المآخذ والأغراض، وأن ينعطف من إحداهما إلى الأخرى انعطافا لطيفا من غير واسطة، تكون توطئة للصيرورة من إحداهما إلى الآخر على جهة من التحوّل .

والانعطاف غير الإلتفاتي يكون بواسطة، بين المنعطف منه والمنعطف إليه ، يوجد الكلام بها مهيأ للخروج من جهة إلى أخرى ، وسبب يجعل سبيلا إلى ذلك يشعر به قبل الانتهاء إليه."[2]

الإلتفات يسهم في الربط بين أجزاء النص ، وتماسك بناه واتساقها ، سواء أتم ذلك دون واسطة أي بغير توطئة ، أو بنية في ذلك أي بواسطة ، وهو بذلك تأكيد على براعة الشاعر.

لقد ذكر حازم أنواعا من الالتفات ، والتي غايتها التنويع في طريقة الانتقال في الكلام والربط بين أجزاء ه . والمميز عند حازم هو تفطنه " في الالتفات إلى خاصية ينفرد بها، وهي أنه قد ربطه بالأسلوب والمنهج ولم يقف عند حد ما قاله ابن المعتز من الانتقال بين الضمائر،

---

[1] نفسه ، ص 284 ، 285 .

[2] نفسه ، ص 285 .

بل لاحظ خاصيته الأسلوبية ومراوحته بين الرقة والخشونة وأثر ذلك في جمال الأداء الفني" [3]

و يرى حازم أن أفضل التخلصات هي من نصيب المتأخرين من الشعراء وهم - حسب رأيه - قد تفوقوا على القدماء في هذا المجال " وشعراء المحدثين أحسن مأخذا في التخلص والاستطراد من القدماء لأن المتقدمين إنما كانت قُصاراهم في الخروج إلى المديح أن يقول : دع ذا وعداً القول في هذا أو يصف ناقته ويذكر أن إعمالها إنما كان من أجل قصد الممدوح ، وعلى أنهم كانوا معتمدين في الخروج على تعدية القول أو تعدية العيس فقد ندر لهم من التخلص ما يستحسن ومن الاستطراد مالا ينكر الابداع فيه وقد كان في المحدثين من يعفي خاطره في الخروج إلى المديح إقتداء بالمتقدمين فيهجم على المديح من غير توطئة ." [1] فطريقة القدماء في التخلص إلى المديح – وإن كانوا قد برعوا فيها - مشتركة بينهم وبين المحدثين ، في حين أن المحدثين قد خالفوهم ، فكان إنتقالهم بغير توطئه أو تمهد .

يشترك حازم مع سابقيه في التأكيد على اتساق النص و ترابطه خاصة في ما يتعلّق بالانتقال من غرض إلى آخر فإن " الذي يجب أن يعتمد في الخروج من غرض إلى غرض أن يكون الكلام غير منفصل بعضه عن بعض ، و أن يحتال في ما يصل بين حاشيتي الكلام و يجمع بين طرفي القول حتى يلتقي طرفا المدح و النسيب أو غيرهما من الأغراض المتباينة التقاء محكما " [2] فالتخلص الذي هو ربط بين أجزاء النص وأغراضه ، يستعمل كل إمكاناته اللغوية والنظمية لجعل نصه كلا منسجما ، و هو ما يسهم في تحقيق النص لغايته الأساسية ؛ وهي إحداث التخييل لدى المتلقي و جعله يستجيب له ، بيد أنّ إدراك هذه الغاية لا يكون إلا بتفادي أن " يختل نسق الكلام و لا يظهر التباين في أجزاء النظام ، فإنّ النفوس و المسامع إذا كانت متدرجة من فن من الكلام إلى فن مشابه له و منتقلة من معنى الى معنى مناسب له ، ثم انتقل بها من فن الى فن مباين له من غير جامع بينهما و ملائم بين

---

[3] منصور عبد الرحمان ، مصادر التفكير النقدي والبلاغي عند حازم القرطاجني، د ط، ومكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، 1980، ص 482.

[1] حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء ، ص 317 ، 318 .

[2] نفسه ، ص 318.

طرفيها و جدت الأنفس في طباعها نفورا من ذلك و نبت عنه " 3 فالانتقال السلس المتدرج من شأنه المحافظة على نسق الكلام و اتساق أجزائه .

سعى حازم لتوضيح الطريقة المثلى من خلال قوله : " و طريقة التخلص ينحى بها أبدا نحوان: نحو يُتدرج فيه إلى ما يراد التخلص إليه و ينتقل بلطف إليه مما يناسبه و يكون منه بسبب و نحو لا يكون التخلص فيه بتدرج و انتقال من الشيء إلى ما يناسبه و يشبهه و لكن بالتفات الخاطر جيزا من حيز و ملاحظته طرفا من طرف فيعطف ما يريد التخلص إليه بما يكون مناقضا له أو مخالفا أوشك انعطاف من غير مقدمة تُشعر بذلك أو واسطة تنظم بين الطرفين و لكن بالخروج من أحدهما و التخلي عنه دفعة إلى الآخر على جهات من المآخذ " [1]

فالمنحى الثاني – كما وضحه حازم – يكون فيه الانتقال غير موفق ، لأنّه تم من غير واسطة و من ثم سيؤثر سلبيا على عملية التلقي ، لتخيبه أفق انتظار المتلقي ، و من ثم لم تحدث الهزة الشعورية التي كان يأملها المبدع من خلال نصه.

قدم حازم جملة من الأمثلة عن التدرج ، منها ما يتعلق بغرض النسب الذي يُتدرج فيه بما له علاقة بالمحب ، منتقلا إلى ذكر ماله علاقة بالمحب و المحبوب معا خاصة ما تعلق بالأمور المحزنة (البين ، الفراق الصمد) ليلج إلى ذكر الأمور السارة التي يرجو وقوعها ، لينتقل بعدها إلى غرض المديح[2] أما عن المديح المتخلص إليه من نسب فيكون البدء فيه بذكر خصال الممدوح ثم ذكر قوته و شجاعته و دحره للأعداء للتدرج بعدها للحديث عن أصله الطيب - إن وجد - و إنهاء الحديث بالدعاء و التمني للممدوح.[3]

هذه الطريقة المثلي للتخلص ، كل غرض بحسب ما يناسبه من المعاني . لقد كانت الرغبة في انسجام و ترابط أجزائه ، وائتلاف معناها دافعا وراء إطلاق حازم لجملة من التحذيرات يصب مجملها في توكيد هذه الرغبة ، فقد دعا الشاعر إلى :

---

[3] نفسه ، ص 318 ، 319 .

[1] نفسه ، ص 319 .

[2] نفسه ، ص 304 ، 305.

[3] المنهاج ، ص 305 .

- الاحتراز من انقطاع الكلام.
- الاحتراز من اضطراب الكلام.
- الاحتراز من النقلة بغير تلطف.
- أن يُجهد الشاعر نفسه في تحسين البيت التالي لبيت التخلص.

و كأننا و نحن نقف على هذه التنبيهات المقدمة من شاعر ذوّاق ، و ناقد متمرس عارف بأسرار هذه الصناعة ، نجد أنفسنا أمام دعوة لإنتاج نص متسق و منسجم ، متماسك الأجزاء - و هي أهم خاصية تحكم المنتج الشعري حتى تصح فيه هذه التسمية : النص - و هو ما فتئ صاحب المنهاج يؤكد عليه في كل بيت ، و كأنّه يأمل تعميم الاتساق ليشمل البنية الكبرى للنص كوحدة شاملة ،كي يحقق النص التفرد والتميّز.

لأنّ أي خلل قد يقع في اللفظ من خلال الحشو ، أو في المعنى من خلال الكناية سيؤثر لا محالة سلبا على بناء النص سواء على مستوى المتتاليات ، أو على مستوى النية الكبرى لأنهما " يضعفان قوة إخلاص التخلص لوظيفة الربط المضموني المنطقي في موضع تلح فيه الحاجة إلى نقل الكلام في تدرج من محور خطابي إلى آخر ، إنهما يضعفان قوة إخلاص التخلص لتلك الوظيفة لأنهما يقيدان حركته اللفظية و المعنوية : تضعفان السلاسة و تشاب مباشرة المعنى بلازم المعني" [1]فهذا التدرج في الانتقال بين أعراض النص و موضوعاته دعامة أخرى في صرح بناء التماسك النصي.

يتجلى هذا المذهب ، و يترسخ من خلال دعوة حازم إلى تجويد و تحسن البت التالي لبيت التخلص لتوكيد هذه النقلة النوعية في النص من خلال التدرج فيها لذا كان " مما يجب اعتماده في التخلص أن يُجهد في تحسين البيت التالي لبيت التخلص ، فإنّه أوّل الأبيات الخالصة للمدح أو الذّم و أول منقلة من مناقل الفكر في ما تخلصت إليه ، فيجب أن يعتمد فيه ما يكون محركا للنفس لتستأنف هزة و نشاطا لتلقي ما يرد، فإن العناية بهذا نحو العناية بالبيت الثاني من مطلع القصيد" [2] تتوحد الدعوة إلى تجويد البيت الثاني سواء أكان مطلعا أو تخلصا ، غايته تجويد النص كوحدة شاملة ، و أيضا هو طريقة نظمية غرضها إشاعة الجمال و الاتساق في النص ، حتى نجعل المتلقي في شغف و إقبال دائم

---

[1] محمد العبد ، النص والخطاب والاتصال ، ص 142 .

[2] حاتم القرطاجني ، منهاج البلغاء ، ص 321 .

- لا يعرف الفتور - على مطالعة النص ، و من ثم إحداث الانطباع الذي ينشده الشاعر من خلال نصه.

الإنتهاء أو الاختتام :

لا يقل اهتمام حازم بنهاية القصيدة أو منتهاها عن عنايته ببقية أجزاء النص ، يتجلى ذلك من خلال دعوته إلى عدم قطع الكلام في النص بماقد يسيء إلى الانطباع الأولي الذي شكلته أجزاء النص السابقة لدى المتلقي ، وكي لايصاب بخيبة أمل لمناقضتها لما كان ينتظره في هذا الجزء من النص لأن في ذلك تأثير سلبي على عملية التأثر والاستجابة لديه .

ترتبط الغاية التخييلية المنشودة من النص بتحسين أجزاءه ولاسيما منتهاه ، وذلك يكون بربطه بأجزاء النص السابقة مع حسن صياغته حتى " يكون ما وقع فيها من الكلام كأحسن ما اندرج في حشو القصيدة ، وأن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفر للنفس عما قصدت إمالتها إليه أو مميل لها إلى ما قصدت تنفرها عنه ، وكذلك يتحفظ في أول البيت الواقع مقطعا للقصيدة من كل ما يكره . " [1].

الدعوة للعناية بانتقاء اللفظ والمعنى وكذا حسن الصياغة في جانبها النظمي سببها إيقان القرطاجني بتأثير بنائها على عملية الإيصال بين المبدع والمتلقي من خلال النص ،كما أن ربط حازم للخواتم بالمقصدية الشعرية هو توكيد على ضرورة الملاءمة بين الدال والمدلول في النص وهو مقصد اشترك فيه مع مواطنه ابن رشيق ولا سيما وأنّ كلايهما قد استشهدا ببيت المتنبي الذي يقول فيه :

فلا بلغت بها إلاّ ظفر ++ ولا وصلت بها إلاّ إلى أمل

نظرا لأهمية الخاتمة في النص الشعري فقد بين حازم طريقة تجويدها قائلا : " فأما الاختتام فيجب أن يكون بمعان سارة فيما قصد به التهاني والمديح وبمعان موسية فيما قصد به التعازي والرثاء ، وكذلك يكون الاختتام في كل غرض بما يناسبه ، وينبغي أن يكون اللفظ فيه مستعذبا والتأليف جزلا متناسبا فإن النفس عند منقطع الكلام تكون متفرغة لتفقد ما وقع فيه ، غير منشغلة باستئناف شيء آخر ."[2]

خاتمة القصيدة هذه المحطة من النص ، هي آخر ما يعلق بذهن المتلقي فجودة بنائها وتلاؤم معناها مع أجزاء النص السابقة ، هي تكريس

---

[1] انفسه ، ص 285 .

[2] المنهاج ، ص 306 .

لبراعة الشاعر في بناء نصه ودليل أكبر على اتساق هذا النص الذي ما فتأ الحسن ينتشر عبر أجزائه ، وتوكيدا للانطباع الحسن الذي شكلته أجزاء النص السابقة لدى المتلقي .

- **تماسك النص :**
- بناء الفصول:

تمتد عناية القرطاجني ببناء النص الشعري لتشمل شكلا بنائيا آخر أطلق عليه إسم" الفصل " وهو عنصر أساسي في بناء النص وجزءا لا يتجزأ منه . والفصل يتراوح بين البيتين والأربع أبيات وهو ما نستشفه من النموذج التطبيقي الذي اعتمده القرطاجني في الحديث عن هذا الجزء من النص ، وهو قصيدة المتنبي : أغالب فيك الشوق ، والتي قسمها إلى خمسة فصول هي : قرب البين تذكر العهود السارة ، الحذر من الحراس ، ذم الدنيا .

فالتناسب هو ما يحكم هذه الفصول التي تشكل نصوصا متعددة تتناسق لتؤلف بنية أكبر لنص أكثر شمولية وفق منظور نظرية النص الحديثة .

إن الحديث عن التناسب بين الفصول المشكلة للنص أمر انتبه إليه بعض النقاد القدامى مثل ابن طباطبا الذي جعل " للشعر فصولا كفصول الرسائل " [1] إلا أنه لم يوضح وجه الشبه بين الفصول فيهما مكتفيا بالإشارة إلى الجانب الشكلي المتوافق بينهما دون إبداء أي تفصيل في هذا المجال .

يقوم الفصل في النص الشعري على ترتيب الأبيات ونظمها وتناسقها على وجه يجعل من النص الذي هو بنية كلية شاملة كيانا متماسكا ومنسجما ضمن سياق تواصل شعري معين وهو ما يفصّل فيه الحديث حازم القرطاجني من خلال تعرضه للشروط البنائية للفصول .

فإذا كان الفصل وحدة جزئية داخلة في تكوين وحدة أكبر هي النص باعتباره وحدة شاملة ، فقد حرص حازم على توضيح هذه البنية قائلا : " أعلم أن الأبيات بالنسبة إلى الشعر المنظوم نظائر الحروف المقطعة من الكلام المؤلف والفصول المؤلفة من الأبيات نظائر الكلم المؤلفة من الحروف والقصائد المؤتلفة من الفصول نظائر العبارات المؤلفة من

---

[1] محمد بن أحمد بنطباطبا ، عيار الشعر ، تحقيق عبد الستار عباس ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، 1982، ص 12 .

الألفاظ ، فكما أن الحروف إذا حسنت حسنت الفصول المؤلفة منها إذا رتبت على ما يجب ووضع بعضها من بعض على ما ينبغي كما أن ذلك في الكلم المفردة كذلك وكذلك يحسن نظم القصيدة من الفصول الحسان كما يحسن ائتلاف الكلام من الألفاظ الحسان إذا كان تأليفها منها على ما يجب وكما أن الكلم لها اعتباران: اعتبار راجع إلى مادتها وذاتها ، واعتبار بالنسبة إلى المعنى الذي تدل عليه ، كذلك الفصول تعتبر في أنفسها وما يتعلق بهيآتها ووضعها ، وتعتبر بحسب الجهات التي تضمنت الفصول الأوصاف المتعلقة بها ." [2]

لقد نظر حازم إلى الفصول فوجد أنها مقاطع أو وحدات مكونة من الأبيات مرتبة بطريقة خاصة فربط بين تركيبها وتركيب الحروف للكلمة ، فكما يتألف الكلام من حروف مقطعة تشكل بتألفها الألفاظ والعبارات والجمل ، فإنّ الشعر ينتظم من أبيات تشكل بانتظامها فصولا ثم قصائد أو نصوصا ذات أغراض معينة " فإذا تماسكت هذه الوحدات وحسن ترتيبها وتحسينها والتأليف بينها تماسكت الوحدة الكبرى التي هي القصيدة في الشعر المنظوم والعبارة في الكلام المؤلف ."[1] إن جودة بناء الفصول وحسن اتساقها ومجيؤها على نسق واحد يطبعه الانسجام والتكامل ، من شأنه أن يزيد من جمالية النص ، وقدرته على الاتصال والتأثير في المتلقي .

تأتي هذه الدعوة للعناية بالفصول وتحسين موادها امتدادا لنظرة حازم للنص الشعري التي ما فتأت تلح على انسجام النص وتماسكه ، ولتحقيق هذه الغاية يصدر صاحب المنهاج جملة من القوانين يراها كفيلة بتحقيق هذا المرمى وهي على التوالي :

- القانون الأول : في استجادة مواد الفصول وانتقاء جوهرها .
- القانون الثاني : في ترتيب الفصول والمولاة بين بعضها وبعض
- القانون الثالث : في ترتيب ما يقع في الفصول .
- القانون الرابع : في ما يجب أن يقدم فصول وما يجب أن يؤخر فيها وتختتم به ." 2

هذه القوانين الأربعة المتعلقة بكيفية بناء فصول النص غايتها تحقيق الإرتباط المضموني أي التماسك الكلي للنص ؛ وذلك يتأتى من

---

[2] حازم القرطاجني ، المنهاج ، ص 287 .

[1] محمد الحافظ الروسي ، ظاهرة الشعر عند حازم القرطاجني ، ج 2 ، ص 796 .

[2] حازم القرطاجني ، المنهاج ، ص 288 .

خلال اتساق الفصول وترابط مضامينها وحسن تركيب ألفاظها مع إحكام نسجها كي تكون أكثر قدرة على التعبير والايصال ، ومن ثم التأثير في المتلقي وهو الأمر الذي يتجلى بشكل واضح من خلال القانونين الأولين .

في حين يركز القانونين الأخيرين على ما يمكن أن يحققه الارتباط المضموني بين أبيات الفصل الواحد ، أي التماسك الجزئي بين وحداته الصغرى ، لهذا فإن " الشرطين الأخيرين خاصة شديدا الالحاح على الترابط ويستفاد ذلك من سلبية (تخاذل النسج) أي كونه مهلهل الخيوط غير متصل بعضها ببعض على الوجه الأكمل وكأني بالقرطاجني يرى الكلمات خيوطا متداخلة ينشأ من قوة تشادها ثوب كامل النسج متينه .

أما الترابط فقد تم التعبير عنه صراحة في الشرط الرابع الذي يعد في اعتقادنا امتدادا وتنميقا للسابق أي تلافي قيام كل بيت بنفسه لا يحتاج إلى ما تقدمه أو إلى ما لحقه ." [3]

يعد تأكيد حازم على ضرورة تحقق هذه الشروط في فصول النص ، وحتى على مستوى البيت وعلاقته بالأبيات السابقة واللاحقة مسعا غايته البلوغ بالنص درجة كبرى من اكتمال البناء وانسجام وتماسك النسج دون الإخلال بمناسبة هذا البناء لسياق القول وغرض النص ، هذا المسعى تؤكده دعوته لأن تكون الفصول " متناسبة المسموعات و المفهومات حسن الاطراد غير متخاذلة النسج غير متميز بعضها عن بعض التميز الذي يجعل كل بيت كأنّه منحاز بنفسه لا يشمله وغيره من الأبيات بنية لفظية أو معنوية يتنزل بها منه منزلة الصدر من العجز أو العجز من الصدر والقصائد التي نسجها على هذا مما تستطاب وينبغي أن يكون نمط نظم الفصل مناسبا للغرض ... وأن تكون الفصول معتدلة المقادير بين الطول والقصر ، وتقصير الفصول سائغ في المقطّعات والمقاصد التي يذهب بها مذهب الرشاقة ... فأما القصائد المطولة والمقاصد التي يذهب بها مذهب التهويل والتفخيم فإنّ تطويل الفصول سائغ فيها ومحتمل لموافقته ومقصد الكلام كون القصيدة فيها رحب لذلك وسعة ."[1]

---

[3] محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ط 2،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء المغرب، بيروت لبنان ، 2006،ص151.

[1] حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء ، ص 288 .

ينبغي أن تتلاءم مقادير الفصول مع مقاصد الكلام في النص الشعري فهي تأتي معتدلة بين الطول والقصر باستثناء بعض الأغراض التي قد تطول فيها وقد تقصر ، فهذا الانسجام الكمي لوحدات النص من شأنه تحقيق التأثير في المتلقي ولتعميق ذلك طلب حازم المبدع بأن " يقدم من الفصول ما يكون للنفس به عناية بحسب الغرض المقصود بالكلام ويكون مع ذلك متأتيا فيه حسن العبارة اللائقة بالمبدأ ويتلوه الأهم فالأهم إلى أن تتصور التفاتة ونسبة بين فصلين تدعو إلى تقديم غير الأهم على الأهم فهناك يترك القانون الأصلي في الترتيب وتقديم الفصول القصار على الطوال أحسن من أن يكون الأمر بالعكس ." 2

إن إدراك حازم لفعالية اللغة الشعرية وكيفية بنائها وقدرتها على التأثير في المتلقي الذي هو غاية العملية الشعرية برمتها - إقرارا منه باقتران الصورة الشعرية بالنفس - هو ما حذا به إلى دعوة الشاعر لتقديم الفصول التي تكون أقرب إلى قلب السامع وأقدرها على تحقيق الاستجابة المنشودة من قبل الشاعر عبر نصه بيد أن " الإثارة الوجدانية لوحدها لا تكفي في أول فصول القصيدة بل لا بد من صوغ تلك الإشارة في ثوب لفظي ونسيج تركيبي تطرب له الأذن أيضا." 3

يظل مبدأ التناسب مسيطرا على التفكير النقدي لحازم عبر مختلف جوانب النص ، فضمن حديثه عن بناء الفصول يتطرق إلى المادة المكونة لها والتي " يبدأ منها بالمعنى المناسب لما قبله ، وإن تأتى مع هذا أن يكون ذلك المعنى هو عمدة معاني الفصل والذي له نصاب الشرف كان أبهى لورود الفصل على النفس ."[1] بيد أنّه " يحسن أن يصاغ رأس الفصل صيغة تدل على أنه مبدأ فصل وإن تمكن مع هذا أن يناط به معنى يحسن موقعه من النفوس بالنسبة إلى الغرض كالتعجيب والتمني وتعديد العهود السوالف وما أشبه ذلك فهو أحسن ." [2] ، فالتميز في الابتداء ليس خاصية فواتح القصائد فحسب بل تشمل أيضا بداية الفصول التي ينبغي أن يكون بناؤها جديدا لافتا للانتباه ولعل " المذهب

---

[2]حازم القرطاجني ، المنهاج ، ص 288 .

[3]محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ط 2،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء المغرب، بيروت لبنان ، 2006،ص151.

[1]محمد أديوان ، قضايا النقد الأدبي عند حازم القرطاجني ، ط 1 ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، مطبعة النجاح الجديدة ، الرباط ، الدار البيضاء ، 2004 ، ص 557 .

[2]المنهاج ، ص 289 .

المختار أن يكون لمعنى البيت علقة بما قبله ونسبه إليه." [3] لعل هذا مفهوما واسعا لعملية الإبداع الشعري – الذي قوامه التخييل – والذي يؤكد عمق العلاقة الكائنة بين بناء الصورة الشعرية والتأثير النفسي في المتلقي .

إن التداخل بين الشعر والنثر وتأثير كل منهما في مجاله قد دفع صاحب المنهاج إلى إقرار إمكانية المزاوجة بين المعاني الشعرية والخطابية في الفصول من خلال قوله : " فأما من يردف الأقوال الشعرية بالخطابية فإنه الأحسن له أن يفتتح الفصل بأشرف معاني المحاكاة ويختمه بأشرف معاني الإقناع وإلى هذا كان يذهب أبو الطيب المتنبي – رحمه الله – في كثير من كلامه ."[4]

وهو لا يكتفي بالحديث عن افتتاحية الفصل بل يرى أنه " يجب أن يردف البيت الأول من الفصل بما يكون لائقا به من باقي معاني الفصل مثل أن يكون مقابلا له من جهة التقابل أو بعضه مقابلا لبعضه أو يكون مقتضى له مثل أن يكون مسببا عنه أو تفسيرا له ، أو محاكى بعض ما فيه ببعض ما في الآخر أو غير ذلك من الوجوه التي تقتضي ذكر شيء بعد شيء آخر ، وكذلك الحكم في ما يُتلى به الثاني والثالث إلى آخر الفصل ، وربما ختم الفصل بطرف من أغراض الفصل الذي يليه أو إشارة إلى بعض معانيه ." 5

يتحدث حازم عن علاقة بقية أبيات الفصل ببعضها والقائمة على التكامل ، والتماسك "ولعل وضع يده على بعض وجوه التعلق بين البيت والآخر من الفصل الواحد بداية جدولة العلاقات الدلالية التي سبق فيها المحدثين مثل نايدا ، يحتفظ نايدا بحق الجدولة المتكاملة العلاقات الدلالية بين المنطوقات ، ويحتفظ حازم بحق السبق إلى كثير من تلك العلاقات ولنا أن نقابل ما عند حازم بما يشاكله عند نايدا على التوالي :

---

[3] نفسه .

[4] نفسه .

[5] محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ط 2،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء المغرب، بيروت لبنان ، 2006،ص151.

حازم : نايدا :
علاقة المقابلة . – العلاقة التقابلية (علاقة ثنائية)
الكلية . – السبب – التفصيل (علاقة تبعية)
البعضية . – الكيفية (علاقة الوصف) .
مسبب عنه .
تفسيرا له .
بعضه يحاكي ما في بعض الأخر . " [1]

وحدة النص وتماسكه أمر ظل يراود حازم ، ويلح عليه عبر مختلف عناصره البنائية ، و التي ما فتئ يدعو إلى تجويدها من جهة ، و إلى اتساقها وترابطها سواء على مستوى الوحدات الصغرى أو على مستوى الوحدة الكلية والشاملة للنص من جهة أخرى ، وبالتالي يمكننا القول أنّ جذور النصية متأصلة وبشكل واضح وجلي عند حازم واستحق عليها حق الأسبقية .

ـ اتساق المعاني بين الفصول:

تظل رغبة حازم الجامحة في إنتاج نص منسجم و متسق تلح عليه و تؤرقه ، و هو ما يعكسه إلحاحه المتواصل على توضيح السبيل الصحيح الذي ينبغي للشاعر سلوكه في إنتاج نصه.
قناعة منه بأهمية السياق التواصلي في إنتاج النّص الشعري و علاقته ببناء الفصول والتي يمكن اعتبارها نصوصا ، تدخل في تشكيل بنية أكبر وأكثر شمولية وفق منظور ومقاييس علم النص الحديث.
من هذا المنطلق ذهب حازم إلى التمييز بين أنواع من القصائد معتمدا على نوع المعاني الموظفة في هذه الفصول فرأى أنّ " من القصائد ما يكون اعتماد الشاعر في فصولها على أن يضمنها معاني جزئية تكون مفهوماتها شخصية ، ومنها ما يُقصد في فصولها أن تضمن المعاني الكلية التي مفهوماتها جنسية أو نوعية ، ومنها مل يقصد في فصولها أن تكون المعاني المضمنة إياها مؤتلفة بين الجزئية والكلية وهذا هو المذهب الذي يجب اعتماده لحسن موقع الكلام به من النفس " [2]، فإذا كانت المعاني الجزئية مفهوماتها شخصية والمعاني الكلية مفهوماتها جنسية أو نوعية فإن الجمع بين هذين النوعين ؛ الجزئي والكلي في النص هو الأمر المفضل عند حازم في بناء الفصول لما له من تأثير على المتلقي من خلال هذا التنويع ، ولعل " أحسن ما يكون عليه هيأة الكلام في ذلك أن تصدّر الفصول بالمعاني الجزئية وتردف بالمعاني

---

[1] نفسه ، ص 90 .

[2] المنهاج ، ص295 .

الكلية على جهة تمثل بأمر عام على أمر خاص أو استدلال على الشيء بما هو أعم منه أو نحو ذلك ."[1]

قدرة الشاعر على تجسيد الاتساق والانسجام المعنوي بين الفصول ، وجعل التفاعل سمة مميزة لعلاقتها ببعضها هو دلالة على إجادة الشاعر في بنائها وتوزيع المعاني بينها ، حيث يبدأ بالمعاني الجزئية ليلحقها بالكلية ، فهو المنهج الأفضل عنده والذي سار عليه المتنبي باعتباره دليلا جيدا على طريقة الشعراء المجيدين في هذه الصناعة في التدرج في المعاني من الجزء إلى الكل " وبهذا يكون النص مرتبطا بقواعد التعبير التي تضمن له تراتيبية الهيكلة العلاقتية القرائية ، كونه يشكل حيزا اجتماعيا متمركزا حول العقل تنتج عنه متواليات غير محدودة من اختلافات الدلالة المؤطرة في نظام لغوي معين ."[2]

ففي النموذج المستشهد به نجد المتنبي قد انتقل من الحديث عن الفراق وما يسببه من ألم في قلب العاشق، والذي يحاول تناسيه باستحضار الذكريات الجميلة والأحداث السارة التي شهدها المحبان أيام وصالهما ، ليخصص الفصل الثالث لشيئ له علاقة بهذه الأيام وهو الخوف من الرقباء وما سيترتب من ضرر إذا كشف أمرهما ، ليكون الفصل الأخير ربطا لآخر الكلام بأوّله ، فيذم فيه الدنيا التي غيّرت أحواله وقلبت سعادته إلى حزن وألم .

الرابط بين هذه الفصول على استقلال معناها كبير ؛ فهي تصب كلها في معنى أوسع وبنية أكبر لتعبر عن الحب وما يشهده طرفاه من تنائي وتداني . حيث جاء الانتقال بين موضوعات هذه النصوص التي يطبعها التناسب بسلاسة كبيرة ، لاتجعل المتلقي يشعر أنّه انتقل من موضوع إلى آخر وهنا تكمن البراعة ويتأكد التميّز ؛ في جعل هذه النصوص متماسكة بصورة تأسس لبناء أكبر هو البنية الكبرى والشاملة .

إن إدراك حازم لأهمية هذا الانتقال السلس و المنتظم في عرض المعاني عبر البنية الشاملة للنص هو توكيد للغاية التخييلية للنص الشعري ، والتي لن تتحقق إلا من خلال إحداث تأثير فاعل في

---

[1] نفسه .

[2] محمد لخضر زبادية وحبيبة الطاهر مسعودي . أدبية البنية النصية في ضوء العملية الإبداعية والممارسة النقدية ، ط1 ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2008 ، ص 12 .

المتلقي وحمله على التأثر و الاستجابة للنص ، وهو أمر يسهم فيه بشكل واضح الاتساق المعنوي للنص .

ويرجح صاحب ظاهرة الشعر عند حازم أن هذا الأخير قد أخذ فكرة المراوحة بين المعاني الجزئية والكلية من ابن سينا عند حديثه عن التركيب والإجمال قائلا :" والذي يقوى هذا الرأي أن حازما يجعل التأكيد مطلوبا في الانتقال من بعض صدور الفصول إلى بعض مما يدل على أنه كان متحضرا له وهو يضع هذا القانون من قوانين المراوحة، وأنه في جعله التصدير للجزئي والإرداف للكلي إنما كان يهدف إلى الأخذ بما قاله ابن سينا في فائدة هذا الإرداف من حيث قوته التأكيدية."[1] إنّ التدرج في عرض المعاني عبر الفصول هو توكيد للصلة بين أبيات الفصل الواحد ، ثم بين الفصول المشكلة للبنية الشاملة للنص ، حرصا على تحقيق انسجامها وتماسكها . هذه العناية يعمقها حديثه عما يجب أن تقدم به الفصول ، وما تختم به .

- **التسويم والتحجيل:**

تأتي عناية القرطاجني بالفصول وبطريقة بنائها ، من منطلق اهتمامه ببنية النص وتماسكه وانسجامه . ومن ذات المبدأ سعى إلى سنّ قوانين تنظم الفصل الواحد ، وتضبط علاقته مع غيره من الفصول، حتى تتلاءم مع الخصائص العامة للبنية شاملة (النص) . ذلك يتأتى من خلال وضع مبادىء مناسبة ، وانتهاء جيد . فدعوة حازم إلى تجويد رؤوس الفصول ومبادئها بشكل يجعلها غررا تزيّن بداية كل فصل (نص) أمر سماه حازم التسويم * هذا الصطلح الذي استعاره من عالم الخيل ، ليجعله عنوانا دالا على مبدأ الفصل.

إن إدراك حازم لتأثير هذه البدايات على عملية الاتصال وعلى المتلقي ، جعله يطالب الشاعر بتجويدها ، وهو الأمر الذي دئب عليه العرب حين " اعتنوا باستفتاحات الفصول وجهدوا بأن يهيؤوها بهيئات تحسن بها مواقعها من النفوس وتوقظ نشاطها لتلقى ما يتبعها ويتصل بها ، وصدّروها بالأقاويل الدالة على الهيئات التي من شأن النفوس أن تتهيأ بها عند الانفعالات والتأثرات لأمور سارة أو فاجعة أو شاجية أو معجبة بحسب ما يليق بغرض الكلام من ذلك . وقصدوا أن تكون تلك الأقاويل مبادىء كلام من جهة نُحي بها من أنحاء الوضع أو محكوما لها بحكم المبادىء . وإن وصلها بما قبلها واصل لكونها مستقلة بأنفسها من جهة الوضع الذي يخصها فيكون استئناف الكلام على ذلك النحو

[1] محمد الحافظ الروسي ، ظاهرة الشعر عند حازم القرطاجني ، ج 2 ، ص 815 .

وصوغه على تلك الهيئات مجددا لنشاط النفس ومحسنا لمواقع الكلام منها ." [1]

إن الاهتمام بجعل بدايات الفصول على هذا الشكل غايتها بالأساس تحقيق الغاية الشعرية وهي إيقاع التأثير في المتلقي ، وجعله يتفاعل مع النص وذلك من خلال تهيأتها للدلالة على مضمون الفصل (النص) ومقصد الشاعر، وكذا ملاءمتها للسياق الذي يرد فيه القول . ليكون " لفواتح الفصول بذلك بهاء وشهرة إزديان حتى كأنها بذلك ذوات غرر ." [2] هذه الأهمية التي يحتلها التسويم تستوجب دلالته على الفصل برمته كبنية مستقلة بذاتها . فالعناية بافتتاحية الفصل مصدرها العناية بتجويد المبادىء بشكل عام لأنه إذا " اطّرد للشاعر أن تكون فواتح فصوله على هذه الصفة واستوسق له الإبداع في وضع مباديها على أحسن ما يمكن من ذلك صارت القصيدة كأنها عقد مفصّل، وتألفت لها بذلك غرر وأوضاح ، وكان اعتماد ذلك فيها أدعى إلى ولوع النفس بها وارتسامها في الخواطر لامتياز كل فصل منها بصورة تخصه ." [3] فحسن نظم الفصول والتدليل عليها بمبادئها ، داخل في استراتيجية حازم ونظرته لبنية النص الشعري ،كبنية تشمل نصوصا أخرى (فصولا) يؤدي تناسبها ودلالتها على المقصد العام للشاعر إلى خلق الانسجام والتماسك بين عناصر البنية الكلية للنص .

لم تقتصر عناية حازم بأوائل الفصول، بل امتدت إلى أواخرها وذلك بدعوته إلى " تحلية أعقاب الفصول بالأبيات الحكمية الاستدلالية ... ليكون إقتران صيغة رأس الفصل وصيغة عجزه نحوا من إقتران الغرة في التحجيل في الفرس * ." [4] فالتحجيل هو طريقة يدعم بها نظم الفصول وذلك بجعل خواتمها أبياتا حكمية واستدلالته سعيا منه لتعميق عملية التأثير في المتلقي والتي يسعى الشاعر لتحقيقها عبر مختلف الجوانب البنائية للنص ، والملاحظ أن الحديث عن الأبيات المحجلة قد ورد على لسان يحي بن ثعلب في قوله " ما نتج قافية البيت من

---

* التسويم مأخوذ من السمة ، وهي العلامة التي كانويعلمون بها إبلهم ، وغالبا ما تكون الرأس، الوجه ؛ التسويم أخو الغرة .

[1] محمد الحافظ الروسي ، ظاهرة الشعر عند حازم القرطاجني ، ج 2 ، ص 815 .

[2] حازم القرطاجني ، المنهاج ، ص 296 .

[3] محمد الحافظ الروسي ، ظاهرة الشعر عند حازم القرطاجني ، ج 2 ، ص 815 .

* التسويم مأخوذ من السمة ، وهي العلامة التي كانويعلمون بها إبلهم ، وغالبا ما تكون الرأس ، الوجه ؛ التسويم أخو الغرة .

[4] أبو العباس أحمد بن ثعلب ... ، تحقيق رمضان عبد التواب ، د ط ، مطبعة المعرفة ، القاهرة ، 1966 ، ص 80 .

عروضه وأبان عجزه بغية قائله وكان كتحجيل الخيل والنور يعقب الليل ."[1]

يربط صاحب المنهاج من خلال حديثه عن تسويم رؤوس الفصول بين تماسك أجزاء الفصل (النص) ودورها التأثيري وقدرتها إلى تحقيق المقاصد وذلك ما يؤكده قوله : " وإذا اتجه أن يكون الانتقال من بعض صدور الفصول إلى بعض على النحو الذي يوجد التابع فيه مؤكدا لمعنى المتبوع ومنتسبا إليه من جهة ما يجتمعانفي غرض ومحركا للنفس إلى النحو الذي حركها الأول أو إلى ما يناسب ذلك ، كان أشد تأثيرا في النفوس وأعون على ما يراد من تحسين موقع الكلام منها."[2]فكلما تحقق الانسجام والتناسب بين الفصول وكان التماسك خاصية مميزة لها كان وقع النص في قلب المتلقي أعمق وتأثيره فيه أكبر .

التنبيهه إلى تحجيل خواتم الفصول، بربط معناها بالمعاني الواردة في الفصل.مستمد من الخطابة ، فغاية وضعها إقناع المتلقي وربط ما جاء فيها بما ورد في الفصل ككل لأنه " لايخلوا المعنى الذي يقصد تحلية الفصل به وتحجيله من أن يكون مترامیا إلى ما ترامى إليه بعضها ، فيورد على جهة الاستدلال على ما قبله أو على جهة التمثيل ويكون منحوّا به منحى التصديق أو إقناع مقصودا به إعطاء حكم كلي في بعض ما تكون عليه مجازي الأمور التي للأغراض الإنسانية علقة بها مما انصرفت إليه مقاصد الفصل ونحي بها نحوه ، فيكون في ورود البيت الأخير الذي يتضمن حكما أو استدلالا على حكم ، إثر المعاني التي لأجلها بُيّن ذلك الحكم أو الاستدلال عليه ، إنجاد للمعاني الأول وإعانة لها على ما يراد من تأثر النفوس لمقتضاها ، فكان ذلك من أحسن ما يعتمد في الفصول وأزينه لها ." [3] إنّ تحقيق التأثير في المتلقي وضمان تفاعله تهيئه هذه الطريقة البنائية في الفصول ، سواء أكانت على مستوى المتتاليات الجميلة أو حتى في الأبيات وبخاصة هذه الأبيات الحكمية والاستدلالية ، فإنّه ينبغي ارتباط معناها بمعاني الفصل بصفة عامة ، حتى تتلاءم مع المقصدية الشعرية للنص .

---

[1] محمد لخضر زبادية وحبيبة الطاهر مسعودي . أدبية البنية النصية في ضوء العملية الإبداعية والممارسة النقدية ، ط1 ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2008 ، ص 12 .

[2] نفسه .

[3] نفسه ، ص 300 .

بيد أن هذا الاتصال بين الفصول وتكاملية المعنى فيها يجعل " همزة الوصل بين رأس كل فصل وذيل الذي قبله يجب أن تكون من البيان والظهور ، بحيث تقنع القارىء بترابط الفصلين ،واتصالهما ببعض ويتطابق هذا النظر تطابقا – يكاد يكون حرفيا – مع ما يذهب إليه عالم اللسان الهولندي " فان ديك DIJK " في حديثه عن ترابط البنى المؤلفة لكل نص ... ذلك أن فان ديك يدعو إلى جعل كل بنية كبرى – وهي الاصطلاح المقابل لكلمة (الفصل) عند حازم – فضلا عن كونها مترابطة من الداخل بالروابط النحوية ، والزمنية ، والصيغ الصرفية ، والعلاقات المنطقية النسبية والوظيفية – يدعو إلى جعلها مرتبطة بالبنية التي تليها ربطا يبعث فيهما معا علاقة الإطّراد والتناسب ." [1] فارتباط الفصول ببعضها أمر ينبغي أن يشعر به المتلقي ويلمسه من خلال مستوياته البنائية المختلفة ، حتى يفتح أمامه آفاقا قرائية مختلفة تتيحها هذه البنية المنفتحة على عدة سياقات من خلال الخصوصية البنائية للنص .

تبرز هذه الوقفة عند رؤية حازم لبنية النص ، عنايته بانسجام وتماسك هذا الأخير والتي كان منطلقها تجويد المبادىء والتخلصات، فركزفي المبادئ على فكرتي التناسب والتناصر . في حين دعى في التخلصات إلى وجوب تحسين البيت التالي لبيت التخلص مع مراعاة حسن تركيبه وخلوه من أي حشو أو كناية .

ولعل الأهم في كل هذا تجاوزه لهذه العناصر المشكلة لاتساق النص إلى الحديث عن القوانين التنظيمية والنظمية المتعلقة بعلاقات الوصل بين الفصول (البُنى الكبرى = النص) وكذا بين أبيات الفصل الواحد حيث دعى على مستوى الفصل إلى ضرورة البدء بالمعاني الجزئية ، ثم تلاوتها بالمعاني الكلية . وكذا تحسين مبادئها وخواتمها من خلال التسويم والتحجيل هذا على مستوى البنية الخارجية للنص كبنية شاملة أو على مستوى الفصول كنصوص مستقلة تنتمي إلى بنية أكبر أما على مستوى البنية الداخلية فقد دعى إلى ضرورة ترتيب المعاني واتصال الكلام ، مع مناسبة المبادىء لما بعد أي التخلص والخاتمة مع التدرج عرض المعاني وملاءمتها للمقصدية الشعرية والسياق .

كما دعى إلى ضرورة التناسب بين أبيات الفصل الواحد بأن يرتبط مطلع الفصل (بيت التسويم) بالبيت الذي يليه ، وكذا بيت

---

[1] ابراهيم خليل ، الأسلوبية ونظرية النص ، ص 60 .

الخواتم في علاقته التكميلية والتناسبية مع المعاني التي سبقتها في ذات الفصل (البنية الكبرى للنص) ، لذا فإنه " إذا كانت بنية النص الكبرى هي بنية المحتوى النصي الشاملة التي تؤثر على مقصده الرئيس ، فإن بنية النصوص المكونة لنص أكبر ممتد ينبغي لها أن تكون – عبر علاقات المحتوى الكبرى فيها – ما يمكن تسميته بالبنية النصية العظمى. " [1] .إن مبدأ التجانس والتماسك الذي ما انفك القرطاجني يلح عليه عبر هذه القوانين التي حاول أن يضيء بها درب الشاعر وينير مسلكه ، خاصة على مستوى القصيدة المركبة التي يكون لكل فصل فيها موضوعه الذي في سياقه تبنى المتتاليات الجميلة بحيث تكون معبرة عن المقصد المتوخى منها .

لقد حاول حازم وضع قوانين تحكم بنية النص ، سواء على مستوى الممارسة اللغوية في شكلها النصي ، أو على مستوى بنية النص وعلاقة أجزائه المكونة مبرهنا على نظرة نقدية ثاقبة استشرفت المستقبل ، متجاوزة النظر إلى بنية الجملة إلى دراسة بنية أوسع وأشمل هي النص، وهو ما يؤكد لنا وجود إرهاصات لعلم لغوي نصي في تراثنا النقدي القديم ، ودون مغالاة أو تحيز أعتبر حازما القرطاجني واحدا من النقاد المغاربة والعرب الذين كان لهم السبق في رؤية تكاملية للنص قوامها الانسجام والتماسك .

[1] محمد العبد ، النص والخطاب والاتصال ، ص 170 .